العرب
الإثنين 2019/12/23
السنة 42 العدد 11567

نحو طيّ صفحة الميليشيات الإيرانية

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

كشفت السنة 2019 التي تشرف على نهايتها، بداية تراجع سطوة الميليشيات المذهبية التي أنشأتها إيران والتي كانت تعتقد أنّها السلاح الأساسي في الترويج لمشروعها التوسّعي في المنطقة كلها، خصوصا حيث هناك وجود عربي، بدءا بسوريا والعراق ولبنان... وصولا إلى اليمن، مرورا في طبيعة الحال بالبحرين وكل بلد عربي قريب أو بعيد.

ما يكشف بداية التراجع يتمثّل في تلك الهجمة الشرسة التي تشنّها إيران عبر أدواتها المختلفة في العراق ولبنان وسوريا واليمن من أجل تأكيد أن مشروعها لم يتعرّض لنكسة حقيقية، وأن ثمّة مجالا لاستمراره في المدى الطويل. لا تدرك إيران، التي هي منذ العام 1979 في حال هروب مستمرة إلى خارج حدودها، أنّ مشروعها عاجز عن أن يوفّر نموذجا ناجحا في أيّ مجال من المجالات نظرا إلى أنّ ليس في استطاعته تقديم أي شيء، لا سياسيا ولا اقتصاديا ولا حضاريا ولا تربويا ولا اجتماعيا. كلّ ما يستطيع تقديمه هو البؤس والتخلّف ونشر الفقر، فضلا عن إثارة الغرائز المذهبية في منطقة في غنى عن مثل هذا النوع من الممارسات.

لا تدري إيران أن هناك صفحة طويت. هذه الصفحة هي صفحة ميليشياتها وذلك سواء عاد دونالد ترامب إلى البيت الأبيض أم لم يعد

تبذل إيران كلّ ما تستطيع كي يبقى العراق على حاله، أي في ظل الوصاية الإيرانية. هذا ما يفسّر التهديدات التي وجّهها الجنرال قاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري" الإيراني لشخصيات عراقية تجرّأت على الاعتراض على الإملاءات الإيرانية، بمن في ذلك مقتدى الصدر. قبل أسابيع قليلة وضع مقتدى الصدر نفسه في تصرُّف "المرشد" علي خامنئي عندما جلس جلسة التلميذ المطيع في مجلسه في طهران. يبدو أن ذلك ليس كافيا. ما هو مطلوب من مقتدى الصدر أن ينسى أنّه عراقي والقبول بأنّه مجرّد جندي آخر في جيش الوليّ الفقيه.

ليس ما تقوم به إيران في العراق أو في سوريا أو في لبنان سوى دليل ضعف. إنّه نتيجة الفشل في إيجاد نظام اقتصادي فعّال قابل للحياة في المدى الطويل. لهذا السبب، نرى حاليا إيران تسعى إلى تأكيد أنّها لن تتراجع لا في سوريا ولا في العراق ولا في لبنان ولا في اليمن؟ ففي سوريا، على سبيل المثال، هناك توسّع إيراني أكيد وصولا إلى مشارف حلب، لكنّ القرار السياسي السوري صار روسيًا أكثر مما هو إيراني، في وقت بدأت تطرح فيه أسئلة في موسكو عن جدوى وضع روسيا نفسها في خدمة مشروع إيراني لا مستقبل له. يحصل ذلك في حين أن المطلوب روسيًا هو استخدام سوريا ورقة في لعبة التجاذبات بين موسكو وواشنطن التي انسحبت عسكريا من الشمال السوري من دون أن تنسحب منه.

أين انكشف المشروع الإيراني؟ الجواب، بكلّ بساطة أنّه انكشف بعد حصول التغيير الأميركي في عهد دونالد ترامب. هناك للمرّة الأولى إدارة تعرف تماما ما هو النظام الإيراني وتتعاطى معه بطريقة مختلفة. لعلّ أهم ما يحدث حاليا هو وجود مفاوضات أميركية – إيرانية سرّية مباشرة وغير مباشرة. بعد كلّ جولة مفاوضات تلجأ الإدارة الأميركية إلى دفعة عقوبات جديدة على إيران، أو على أدوات إيرانية في العراق ولبنان. هذا ما يميّز الإدارة الحالية عن الإدارات السابقة، أقلّه إلى الآن. هناك شروط أميركية لا مفرّ لإيران من الرضوخ لها. هذه الشروط واضحة ومنطقية. فالمشكلة لم تكن يوما في الملفّ النووي الإيراني، كما كان يعتقد باراك أوباما والمحيطون به. المشكلة في سلوك إيران على الصعيد الإقليمي. هل هي دولة طبيعية أم لا... أمْ أنّها قوّة إقليمية تظن أن في استطاعتها لعب دور خارج حدودها، وجعل دول عربية معيّنة مجرد جرم يدور في فلكها؟

إلى ما قبل فترة قريبة، كان الاعتقاد السائد على الصعيدين الإقليمي والدولي، أن لا مجال لوقف الاندفاعة الإيرانية، خصوصا بعدما سلّمت إدارة جورج بوش الابن العراق على صحن من فضّة إلى "الجمهورية الإسلامية" في العام 2003، وبعدما اعتقدت طهران أن في استطاعتها التلاعب بأيّ إدارة أميركية واستخدامها في خدمة مشروعها. ليس تمرير الإدارة الأميركية لاغتيال رفيق الحريري في شباط – فبراير 2005 وحلول إيران مكان الوصيّ السوري على لبنان سوى دليل كانت طهران في حاجة إليه كي تترسّخ لديها قناعة بأن في استطاعتها التعاطي مع الإدارات الأميركية المختلفة، واحتواء ردود أفعالها بما يخدم مصالحها.

لا شكّ أن إيران ستحاول الصمود في وجه العقوبات الأميركية التي يبدو أنّها أثرت كثيرا عليها وجعلتها تلجأ إلى مزيد من العدائية، خصوصا في العراق ولبنان وداخل إيران نفسها حيث احتاج الأمر إلى ما يزيد على ثلاثمئة قتيل لإخماد الانتفاضة الشعبية الأخيرة، وهي انتفاضة قابلة لأن تتجدّد في كلّ لحظة في غير محافظة إيرانية.

يبدو أن الرياح تخدم الإدارة الأميركية في وقت ليس فيه ما يشير إلى أن دونالد ترامب سيخسر انتخابات تشرين الثاني – نوفمبر 2020، وذلك على الرغم من كلّ الصعوبات الداخلية التي يواجهها في الكونغرس، بما في ذلك سعي الديمقراطيين الذين يسيطرون على مجلس النواب إلى عزله.

لا يزال دونالد ترامب في موقع قويّ إلى إشعار آخر، في وقت هناك رهان إيراني على تغيير في أميركا في خريف 2020. لا تزال إيران تراهن على الديمقراطيين وعلى أنّهم سيعودون إلى المربّع الأوّل، أي إلى قناعة فحواها أنّ الملف النووي الإيراني يختزل كلّ مشاكل المنطقة وأزماتها، وأنّه يكفي التمسك بالاتفاق الموقّع صيف العام 2015 كي تنصرف طهران مجددا إلى هوايتها المفضلة، أي إلى لعب دور القوة الإقليمية المهيمنة التي تمارس السلطة في هذا البلد العربي أو ذاك، وتبتز أميركا وأوروبا في الوقت ذاته.

لا تدري إيران أن هناك صفحة طويت. هذه الصفحة هي صفحة ميليشياتها وذلك عاد ترامب إلى البيت الأبيض أم لم يعد. لا يعود طيّ الصفحة إلى أن المشروع الإيراني فشل فشلا ذريعا لأسباب اقتصادية أوّلا وأخيرا فحسب، بل يعود أيضا إلى أن على إيران عاجلا أم آجلا الاهتمام بالإيرانيين وليس بتهديد مقتدى الصدر، أو بالإتيان بحسّان دياب ليكون رئيسا لمجلس الوزراء في لبنان...

في كلّ الأحوال، سيتأكد في السنة 2020 أن المشروع الإيراني لا يمكن إلا أن يتراجع، لا لشيء سوى لأنّه مشروع مصطنع. من أين ستأتي إيران بتمويل لهذا المشروع في وقت صار لبنان بلدا مفلسا، وفي وقت أصبحت مرفوضة من معظم الشعب العراقي، من الشيعة قبل السنّة؟ فما تبيّن في نهاية المطاف أن سلاح العقوبات الذي في أساسه الدولار ناجع أكثر بكثير من أي ضربة عسكرية توجّه هنا أو هناك أو هنالك.

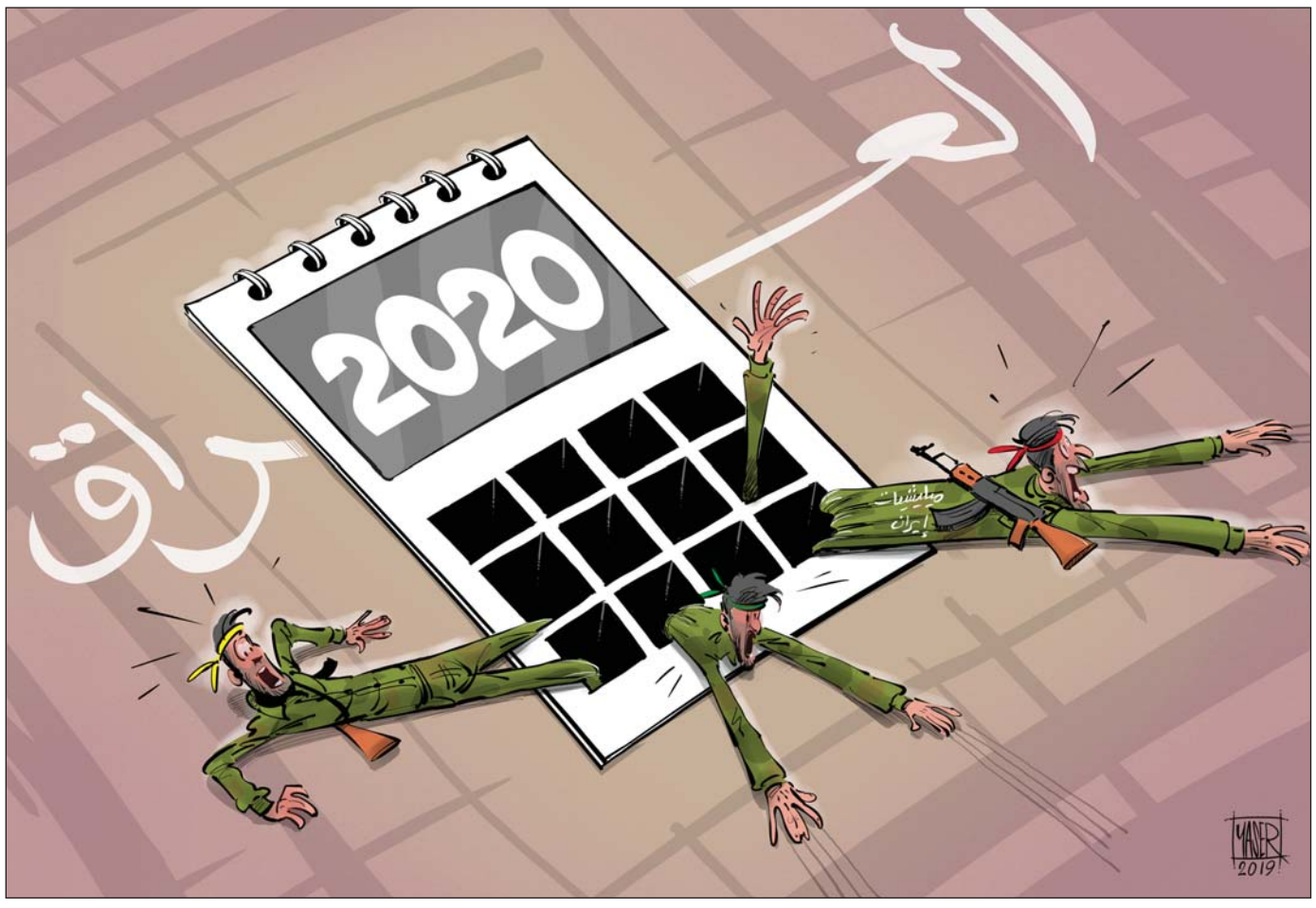

ثورة في العراق، وماذا بعد؟

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

يتراءى لكثيرين من المناصرين المخلصين لهذه الثورة، والخائفين عليها من البطش والغدر، ومن الإحباط، فالتراجع فالانكسار، كما حدث لانتفاضات سابقة، أن الفرح الغامر الذي أشاعته هذه الثورة يوشك أن يتبدّد، ويُعاد العراقيون الصابرون المصابرون، بعد كل الدماء التي سالت، والدموع التي انهمرت، إلى خيمة الولي الفقيه ووكلائه، ليعيشوا فيها زمنا طويلا قادما على أمل أن تقوم ثورةٌ أخرى لا أحد يعلم متى وأين وكيف ستعود.

ودافعهم إلى هذا الخوف الوطني المشروع هو أن أمد الانتصار قد طال أكثر من المنتظر ومن المحمول والمعقول. فمنذ الأول من أكتوبر الماضي وحتى اليوم، والثائرون يراوحون مكانهم، دون انتصار حقيقي ملموس، وأحزابُ السلطة تتفرج، وتماطل، وتستطيع أن تصبر طويلا، أسابيع أخرى أو شهورا، على تداعيات استمرار اعتصامات المنتفضين، وعلى قسوة مطالبهم التي تعني في النهاية وضع الرؤوس الكبيرة والصغيرة المسؤولة عن المذابح الجديدة والقديمة وراء القضبان.

ويرى هؤلاء المتخوّفون على الثورة في عجز رئاسة الجمهورية والبرلمان والكتل والأحزاب الحاكمة عن اتخاذ القرار الذي يرضي الثوار من جهة، ولا يضر أصحاب السلطة وقاسم سليماني، من جهة أخرى، إطالةً لأمد الانتظار الذي قد يصيب الثوار باليأس والقنوط وقد يدفع ببعضهم إلى ترك مواقعهم في بغداد والمحافظات الثائرة الأخرى، ويؤكدون أن طول الانتظار، مع حالة الشلل الواقع في العراق اليوم، هو موتُ الثورة البطيء.

والحقيقة أن جمودَ الحال، نفسه، يشكل ردا معاكسا على أصحاب هذا الرأي، وهذا هو الدليل. فالخلافات التي تعصف بأهل السلطة، وعجزُهم عن الخروج من المأزق الخانق الحالي بسلام هي انتصار يحققه المعتصمون.

ففي انتظار التوافق على رئيس وزراء جديد يتخبط أصحابُ السلطة، ويهينون جميع القيم والمقاييس الوطنية، ويمرغون هيبة الدولة والحكومة والبرلمان بالتراب، خصوصا في مزادات الترشيحات المُسربة المرفوضة من قبل الثوار. وهذا ما يفقدهم احترام العراقيين الذين لم يخرجوا لنجدة المتظاهرين بعد، ويقنعهم بأن الثوار على حق، وأن أحزاب السلطة أثبتت فشلها وسطحيتها وفسادها، وبرهنت على أنها لا تصلح لا للدين ولا للسياسة. وهذا انتصار آخر يضاف إلى انتصارات شباب الثورة، دون شك.

كما أن المحافظات الشيعية التي كانت، إلى زمن قريب، هي البقرة الحلوب التي تضخ ما تحتاجه الأحزاب الحاكمة من مال ورجال، ها هم حكام إيران ووكلاؤهم يتهمونها، اليوم، بالبعثية والأميركية والصهيونية والعمالة لدول الخليج، ليبرّروا تنكرهم لمطالبها المشروعة، ورفضهم التنازل عن بعض مكاسبهم ومناصبهم ورواتبهم، وإصلاح ما يمكن إصلاحه من قوانين وبرامج وقرارات. وهذا يعني أن جماهير المحافظات الجنوبية، حتى التي لم تنتفض، بعد، ولم تنزل إلى ساحات الاعتصام، لم تعد هي العمق الشعبي الحاضن للنظام ومشلول، والدماء الزكية تتقاطر كل يوم وكل ساعة في ساحات الاعتصام، كلها، وكواتمُ الملثمين المكلفين باغتيال خيرة شباب الانتفاضة وأكثرهم شجاعةً ووطنية وعقلانية تصول وتجول.

ومَن يتحمل المسؤولية كاملةً عن هذه الكوارث والخسائر الوطنية الكبرى هي أحزابُ السلطة، وحدها، ومعها النظام الإيراني الذي يملكها ويأمرها بمعاداة شعبها. وهذا ما يضاعف بغض الشعب العراقي لها ولمن يحميها، وهو عز الطلب، وغاية المراد.

نعم إن الشعب العراقي خسر منذ الأول من أكتوبر الماضي وحتى الأمس أكثر من 500 شهيد وأكثر من 20 ألف جريح، إضافة إلى حالات الاغتيال والاختطاف والاعتقال التي لا أحد يستطيع أن يحصر ضحاياها. ولكن هذه التضحيات الجسيمة أكسبت الثوار احترام الشعوب المُحبّة للحرية والسلام، وأظهرت النظام القائم على حقيقته، وأقنعت العدو قبل الصديق بهمجيّته ودمويّته وفساده، الأمر الذي ألجم أصحابه، ومنعهم من اقتحام ساحات الثورة بما لديهم من سكاكين وقنابل ورصاص وملثمين. ولجوؤهم إلى الاغتيال والاختطاف تحت جنح الظلام يعني أن سلاحهم أصبح معطلا، وليس بذي قيمة، وهذا انتصار آخر يضاف إلى انتصارات شباب الثورة، دون شك.

العراقيون أعطوا الأحزابَ الشيعية والسنية والكردية المتحاصصة المتشاركة في الظلم والفساد جميعَ الفرص لتعديل نفسها وتهذيب سلوكها وإثبات أمانتها ووطنيتها، ثم تبيّن، بعد كل ذلك الصبر الطويل، أن استمرارها في الحكم مرهونٌ باعوجاجها وبقدرتها على المراوغة والاحتيال

وللاحتلال الإيراني الذي يملك زمامه، بل إنها هي التي تهدد الاحتلال، وتسعى لتحرير نفسها ووطنها من ظلمه وانتهازيته وابتزازه، وقد تكون عامل تثوير فاعل لجماهير الشعب الإيراني في قادم الأيام. وهذا أيضا هو انتصار آخر أكبر من كل انتصار.

ولا ننسى أن أغلب المجندين في الميليشيات هم من أبناء عشائر الجنوب الذين دفعتهم الحاجة والبطالة إلى القبول بالانضمام إليها. والجرائم التي يرتكبها بحق أبناء عشائرهم قادةُ ميليشياتهم الذين كشفوا عن حقيقة كونهم إرهابيين وعملاء، ستدفع بكثيرين منهم إلى الخروج منها، والتمرد عليها، لا محالة.

وليس مستبعدا أن تصبح هذه الانتصارات المتلاحقة المترابطة عوامل قوية لتعميق حالة الارتباك بين أصحاب السلطة، ولشق صفوفهم، وإثارة بعضهم على بعض.

ألَم يأتكم حديث التهديدات المتعاقبة الحقيقية التي تعرّض، ويتعرّض لها رئيس الجمهورية من أحزاب إيران وميليشياتها؟

وبعد هذا وذاك، ألا يمكن أن تشعل هذا الانتصارات حماس الجماهير الوطنية الشريفة في المناطق الغربية والشمالية من الوطن، وهي المبتلاة بظلم أهل السلطة أكثر من غيرها، فتنتفض كما انتفضت بغداد والناصرية والعمارة والحلة والنجف وكربلاء والديوانية والبصرة، ويتحوّل الاحتجاج والاعتصام الحالي المحدود إلى حالة وطنية شاملة، لا يغلبها غلاب؟

الخلاصة أن العراقيين أعطوا الأحزابَ الشيعية والسنية والكردية المتحاصصة المتشاركة في الظلم والفساد جميعَ الفرص لتعديل نفسها، وتهذيب سلوكها، وإثبات أمانتها ووطنيتها، ثم تبيّن، بعد كل ذلك الصبر الجميل الطويل، أن استمرارها في الحكم مرهونٌ باعوجاجها، وبقدرتها على المراوغة والاحتيال.

ومع إصرار الثوار على البقاء في مواقعهم، وصمودهم، وعقلانيتهم، وصبرهم الجميل ورفضهم الثابت الشجاع لكل مراوغات أهل السلطة ومقترحاتهم الترقيعية الالتفافية، لم تعد استقالة هذا الرئيس أو ذاك الوزير أو إقالته، هي الحلّ الذي يشفي غليل أحد. بل أصبح المطلوب شيئا واحدا لا غير، وهو رحيل النظام بقضه وقضيضه، وأيُّ حلٍ آخر غيره لن يعيد شهيدا إلى الحياة، ولن يرجع مخطوفا ولا سجينا إلى أهله بسلام، ولن يقنع ثائرا بالعودة إلى منزله خالي الوفاض. فالصمود الصمود، والصبر الصبر، والمسالمة المسالمة أيها الثوار، فأنتم الغالبون، وأعداء ثورتكم المهزومون والمدحورون، ولن يصح غير الصحيح.